

مكة المكرمة على ضوء بينات الحق والتاريخ والعلم (١ من ٢)

# ما بناه ابراهيم وابنه اسماعيل أول بيت وضع للناس جميعاً

عبدالخالق أبو محمد \*

■ يرتبط تاريخ البيت العتيق بالحرم الأمن ويرتبط تاريخ مكة المكرمة بحرم الله الأمن، وهذا التاريخ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الأنبياء والرسل والبشرية بداية بآدم عليه السلام ومروراً بإبراهيم وإسماعيل، ونهاية بخاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين. فهناك من المؤرخين القدماء من ينسب بناء البيت إلى الملائكة قبل آدم، ومنهم من نسب بناءها إلى آدم عليه السلام وإلى ابنه شيث . الخ. وليس أمام البشرية من مصادر تستقي منها معلومات صحيحة عن تاريخ هذا البلد الحرام، إلا القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب التاريخ والتراث المحققة.

أول بيت لعبادة الله وطاعته

قال تعالى: [إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين]. هذه الآية المباركة تدل دلالة واضحة على أن أول بيت وضع لعبادة الله على سطح الأرض هو المسجد الحرام الذي بناه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام في مكة المكرمة، حيث قوله تعالى: [إن أول بيت وضع للناس] .. لا دلالة فيه أنه أول بيت وجد لسكن شخص معين من الناس أو قيده بفترة معينة من الناس، بل الآية تفيد الإطلاق بأنه أول بيت وضع للناس جميعاً، أي لعموم الناس وكل الناس الذين يسكنون الأرض وجميعهم شركاء فيه، وبديهة أن الناس لا يشتركون في سكن بيت واحد إلا إذا كان موضوعاً لجهة عامة يشتركون بها، كعبادتهم وطاعتهم ونسكهم بطوفون به ويصلون إليه ويتعبدون عنده وفي اتجاهه. فلهذا قوله تعالى: [إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين] يتخبط بأنه أول بيت وضع لعبادة الله.

وبما أن الكعبة الشريفة أول بيت وضع لعبادة الله وطاعته .. ناسب أن يرتبط وجوده بآدم عليه السلام لكونه هو أول الناس وأبو البشر وأول من أطاع الله بعد أن تاب إليه وأتاب .. أي أن بيت الله الحرام وبالتالي مكة يرجع تاريخهما إلى زمن بعيد لا يعلمه إلا الله عزّ وجل.

من شواهد السنة النبوية

ومن أخبار السنة النبوية ما يؤكد أيضاً أن البيت العتيق كان موجوداً منذ زمن بعيد يعلمه الله عزّ وجل، وكان يحجّ إليه المسلمون وعلى رأسهم الأنبياء.

يتضح ذلك من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبخاصة الحديث الذي ورد في صحيح البخاري والذي يصف حال البيت العتيق عند وصول إبراهيم وزوجه وابنه إسماعيل عليهم السلام. «وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تاتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله»، والذي يذكر أن إبراهيم عليه السلام قد استقبل البيت يدعو الله قبل ترك زوجته وابنه إسماعيل بجوار بيت الله الحرام. والذي يذكر أيضاً أن الملك جبريل عليه السلام، الذي كلف من الله بتفجير المياه من تحت قدمي إسماعيل عليه السلام، قال لأم إسماعيل عليهما السلام: «هنا بيت الله الحرام».

والذي يذكر أيضاً أن إبراهيم عليه السلام قد أشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها محدداً لابنه مكان البيت الذي سيرفعون قواعده (صحيح البخاري، ج ٤، ص ١٧٢ - ١٧٥).

من شواهد التاريخ

يقول هاربي بورتر في كتابه «موسوعة مختصر التاريخ التواتر أن هذا البيت كان محترماً جداً في قديم الزمان والمحجوج الأول لكل العرب وتنازعوا في حراسته وحق الطواف به كما يظهر في أخبار جرهم وبنى إسماعيل ونقلت القبائل ألهتها إليه حتى اجتمعت فيه أصنام كثيرة».

ويعتبر الجغرافي بطليموس واحد من القدماء الذين أشاروا إلى مكة، وحدد موقعها كما هي عليه الآن على خارطة للجزيرة العربية رسمها بيده، وسمّاها بلسان اللاتيني مكوريا. مما جعل هذه البلاد موضع تقديس منذ القدم، حتى أن المصريين القدماء سموها بلاد الحجاز «البلاد المقدسة»، بل امتد تقديس الكعبة في القدم إلى بعض الأمم الأخرى كاليهود والفرس. فقد كان اليهود يعتقدون أن روح «شبهو» أحد ألهتهم قد تقمصت في الحجر الأسود حين زار هو وزوجته بلاد الحجاز ويسمون مكة «مكشيشا» أو «موكشيشانا» أي بيت شيشا أو شيشانا وهما من ألهتهم. وكان الفرس أيضاً يقدسون الكعبة ويعتقدون أن روح «هورامزدا» حلت فيها ولذا كانوا يججون إلى الكعبة. ويذكر المؤرخ السعودي بأن آخر من حج منهم ساسان بن بابك.

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بتقدسهم الكعبة وحجهم إليها قال أحدهم: وما زلنا نحج البيت قدما

ونلقى بالأباطح أمنينا  
وساسان بن بابك سار حتى  
أتى البيت العتيق بأصدينا  
وطاف به وزمزم عند بئر  
لإسماعيل تروي الشاربينا  
وكانت الصابئة وهم عباد  
الكواكب من الفرس والكلدانيين  
يعدونها أحد البيوت السبعة  
المعظمة. وكان اليهود يحترمون  
الكعبة لكونها من معالم إبراهيم.

من أسماء مكة

قيل إنها سميت مكة لأنها تمك من ظلم فيها والحد، أي تهلكه وتنقصه، من قولهم ان فلانا مك فلاناً أي أهلكه ونقصه. وقد ورد اسم مكة مرة واحدة في القرآن الكريم في سورة الفتح من الآية (٢٤)، ومن أسمائها «بكة» وكثيراً ما تأتي الباء مكان الميم في اللسان العربي، مثل ضربة لازم وضربة لازب، وقيل معنى البك الدفع لأن الناس يتزاحمون فيها من كل وجه، وقيل أن بكة موضع البيت وما حول البيت مكة، وقيل أنها سميت كذلك لأنها لا يفجر بها احد الأبكت عنقه، والبك نق العنق، وقيل سميت بذلك لأنها كانت تلب أو تدق رقاب الجبابرة إذا الحدوا فيها، أي لم يقصدها جبار قط بسوء إلا وقصمه الله عزّ وجل. وورد اسم بكة في القرآن الكريم مرة واحدة من قوله تعالى في سورة آل عمران الآية (٩٦).

ومن أشهر أسمائها «أم القرى» وقيل انها سميت بهذا الاسم لأنها أعظم القرى شأناً في البركة والهدى، وقيل انها سميت بذلك لأنها قبله جميع الناس يؤمنونها، وقيل انها سميت بذلك لأنها توسطت الأرض، وهذا ما اثبت في احد البحوث العلمية. وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم مرتين في الآية (٩٢) من سورة الأنعام، وفي الآية (٧) من سورة الشورى.

وكذلك سميت بالبلد الآية (٢١٥) من سورة البلد، والبلد الأمين الآية (٣) من سورة التين، والبلد الحرام الآية (٩١) من سورة النمل، ونعتت بمكة بالحرم الأمين الآية (٦٧) من سورة العنكبوت.

ومن أسمائها الأخرى القديمة: رحم، وصلاح، والنسناسة أي التي لا تقر ظلماً ولا بغياً، والراس، والمذهب، والمقدسة والقادس لأنها تظهر من الذنوب، والباسة لأنها تبس الملحدن أي تحطمهم، والحاطمة لأنها تحطم من استخف بها، وهناك من يطلق على مكة الحرم المكي أو الكعبة أو البيت الحرام أو بيت الله أو البيت العتيق .. الخ.

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

في أرض الحجاز

من المعلوم أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهو أبو الأنبياء

والجدّ المعروف للسلسلة الطاهرة من الرسل بعد خروجه من العراق، أرشده الله سبحانه وتعالى إلى مكان الكعبة الشريفة بالنص الكريم: [وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود]، وهذا ما تؤكد أيضاً كتب التوراة في رواياتها فتقول: «خرج إبراهيم من مصر، وامراته وكل ما كان له إلى الجنوب، وسار من رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل (أي بيت البداءة - أي إلى أول بيت وضع لعبادة الله وطاعته-» (تكوين ١٣/٢-١)، «ثم ارتحل إبراهيم ارتحالا - أي متوالياً - نحو الجنوب» (تكوين ١٢/٩).

والارتحال المتوالي نحو الجنوب بالنسبة للنبي إبراهيم وهو خارج من مصر، وبعد أن مر بمملكة (جرار) جوار غزة ليس شيئاً سوى جزيرة العرب. ويكون مصداقاً لقوله تعالى: [وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت] أي أرشدناه إلى مكان أول بيت وضع للناس لعبادة الله وطاعته.

بنزومزم

هو البئر الذي أنبع الله ماءه لإسماعيل وأمه وللناس عندما نزلت أم إسماعيل وإسماعيل عليهما السلام إلى جوار بيت الله العتيق، وذلك لما فرغ الماء والطعام وتعالق صيحات الطفل وخشيت هاجر على ابنها من الموت عطشاً وجوعاً. وقد وردت قصته في صحيح البخاري في حديث منسوب إلى الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام:

«فلما أشرفت (أي أم إسماعيل) على المروة سمعت صوتاً، فقالت صه - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فضربه ففارت عيناً، حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه، وتغترف من الماء بالقرب من مكة .. وعند تنبعهم لمعرفة من أين تنبع عيون البئر .. وجدوا هناك عينين فقط يغذين البئر .. واحد يأتي من جبل الصفا ومياهها حارة وواحد يأتي من تحت الكعبة ومياهها باردة .. وكذلك بحثوا لمعرفة حكمة البئر بأنه لا يفيض مائه حول جانبيه على رغم أن عيناه يفوران بالماء .. فوجدوا أن ماء البئر تتسرب من عبر مسامات في حواف البئر فتغذي جميع آبار مكة التي تحيط بها .. وكذلك من حكمته بأنه البئر الوحيد الذي لم ينضب ماءه عبر سالف العصور.

بنزومزم وروايات التوراة

«ونفذ الماء من القربة، فالقت هاجر الصبي تحت إحدى الأشجار، ومضت فجلست قبالتها على بعد رميتي قوس، وهي تقول في نفسها: (لا أريد أن أرى الولد يموت). وفيما هي جالسة رفعت صوتها بالبكاء. وسمع الله هاجر من السماء وقال لها: «ما لك يا هاجر؟ لا تخافي. سمع الله صوت الصبي وخذي بيده، فسأجعله أمة عظيمة». وفتح الله بصيرتها فرأت بئر ماء، فمضت إلى البئر ومازت القربة ماء وسقت الصبي. وكان الله مع الصبي حتى كبر، فاقام بالصحراء، وكان رامياً بالقوس» (تكوين ٢١/١٥-٢٠). «ووجد ملاك الرب هاجر على عين مياء في الصحراء» (تكوين ١٦/٧).

من معجزات بنزومزم

وقد تناقل بالتواتر منذ القدم في بركة ورحمة ماء هذه البئر حتى سميت «طعام طعم، وشفاء سقم» وبالبركة والشافية .. الخ، وهذه الحقيقة أيضاً ما أكدته التوراة: «فنادت هاجر الرب الذي خاطبها: (أنت الله الذي يراني) لأنها قالت: (هنا حقاً رأيت الذي يراني) لذلك سميت البئر بئر الحي الرائي» (تكوين ١٦/١٣).

إبراهيم، ولا شك أن سيدنا إبراهيم رفع هذه القواعد بعد طوفان سيدنا نوح عليه السلام الذي لم يؤثر في قواعد البيت أو أساسه، وبذلك فالكعبة سابقة أيضاً عهد سيدنا نوح، ومن ذلك يتضح وجهة الرأي الذي يقول إن الكعبة إنما بنيت على عهد أول البشر آدم وأن ذلك هو التفسير للأية الكريمة: [ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين].

وروى المؤرخون القدماء والمفسرون كثيراً من الروايات حول بناء الكعبة. ومن أدق هذه الروايات وأجزها التي تعتبر جوهر كل الروايات الأخرى التي صاغت حولها: «جاء إبراهيم فوجد إسماعيل يصلح نبلاً له من وراء زمزم. فقال إبراهيم: يا إسماعيل إن ربك قد أمرني أن ابني له بيتاً. فقال له إسماعيل: فاطع ربك فيما أمرك. فقال إبراهيم: قد أمرك أن تعينني عليه. قال: إذا فعل. فقام معه فجعل إبراهيم بينه وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: [ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم]، فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ عن رفع الحجارة قام على حجر (وهو مقام إبراهيم) فجعل يناوله ويقولان: تقبل منا إنك أنت السميع العليم. فلما فرغ إبراهيم من بناء البيت الذي أمره الله عزّ وجلّ ببنائه، أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج إليه.

وصف الكعبة الشريفة

والكعبة الحرام حصن الإسلام وحرزه الحرير، تقع في وسط المسجد الحرام على شكل مربع تقريباً، مبنية بالحجارة الرزقاء الصلبة المائلة إلى اللون الرمادي، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً، وطول قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله ١٢ متراً، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض.

ويخرج من منتصف الحائط الشمالي الغربي من أعلاه الميزاب، ويقال له ميزاب الرحمة، وقبلة الميزاب يوجد الحطيم، وهو جدار مرمر أبيض على شكل قوس نصف دائري من البناء، وإسماعيل رفعا قواعد البيت، ولهذا فقد ذهب الكثير من المفسرين في تفسير آية [وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت]، وآية [وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت لإسماعيل]، وفي هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم وإنما هدى إبراهيم إليها وبوئ لها. أي إن أساس الكعبة كان موجوداً والبناء الاصيل لها كانت قواعده واضحة على عهد سيدنا

فيه .. ويسمى العرب زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها، فيسمى الشمالي بالركن العراقي، والجنوبي باليمناني، والغربي بالشامي، والشرق بركن الحجر الأسود.

مقام إبراهيم عليه السلام

[إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً]، وفي حديث رواه الترمذي أن النبي عليه الصلاة والسلام حين قدم مكة طاف بالبيت سعباً، وأتى المقام فقراً: [وأتخذوا من مقام إبراهيم مصلى]، فصلى خلف المقام.

والمراد بالمقام الحرم أو الحج كله والحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة. لما ارتفع الجدار وضعف الشيخ عن حمل الحجارة، أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيصقها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية من بناء الجدار انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، وهكذا حتى تمّ بنيان جدران الكعبة.

ولما فرغ الخليل من بناء البيت بقي الحجر في الموقع الذي انتهى فيه الخليل من البناء ملصقاً بجدار الكعبة منذ القدم، وإنما أخره عن جدار الكعبة الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر، يمين الداخل من الباب، في البقعة المنفصلة هناك.

مقام إبراهيم وشواهد التاريخ

وكانت آثار قديمي إبراهيم عليه السلام ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تتناوله العرب بالتواتر من أيام الجاهلية، ولهذا قال أبو طالب في قصيدته اللامية المعروفة:

وموطن إبراهيم في الصخرة رطبة  
على قدميه خافياً غير ناعل  
وقد أدرك المسلمون هذا الأثر  
منها ما رواه أنس بن مالك (رضي الله عنه)، قال: «رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام - أي إبراهيم - وأخص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم.

ولم يزل مكان هذا الحجر يعتبر مقاماً لإبراهيم لأنه وقف عليه في أثناء بناء البيت، وجعل ابنه يناوله الحجارة، ولهذا أمر بالصلاة ركعتين خلف المقام عند الفراغ من الطواف، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة.

\* باحث وكاتبة في الفكر الإسلامي والدراسات التاريخية.